نحو فهم السرد التاريخي في القرآن الكريم

عبدالرحمن الطيب الأنصاري و يحيى محمد شيخ أبو الخير

ملخّص: يناقش البحث منهجية السرد القرآني في ترتيب الأقوام البائدة في الجزيرة العربية، التي تراوح بين التسلسل التاريخي من جهة، والموضوعي من جهة أخرى، والنظر في الأمر وتحرير الرأي فيه، ضمن إطار تاريخي، حتى الفترة التاريخية من حضارة الجزيرة العربية. كما يحاول الإجابة عن تساؤل، مفاده: هل يمكن الافادة من القرآن الكريم في التاريخ؟ وعندما نجد القرآن يتحدث عن الحدث بكل تفصيل، وعن الزمان بأدوات التاريخ المعتادة، مثل: قبل، وبعد، وقرونًا بين ذلك كثيرًا؛ علينا عندئذ أن نبحث عن المكان؛ وحتى هذا يمكن أن نستنتجه من سرد القرآن للأحداث التاريخية. وهل تتم بذلك أركان الاحتجاج بالقرآن مصدرًا تاريخيًا لأحداث كثيرة، تتماشى مع ما وصل إلينا من أخبار عنها من غير سبيل القرآن، أو قد تختلف عنه؟ وهنا، نجد القرآن يربطنا بفترة تاريخية، تجعلنا نعيد النظر فيما تعودنا على ترديده من دون الوقوف ولو للحظة، لنتساءل: لماذا؟

Abstract: *This paper examines the methodic Qura'nic narrativity in sequencing extinct peoples of the Arabian Peninsula which alternates between the historically chronological arrangement and the topically objective treatment. The paper seeks to probe the issue within a historical framework up to the written history of the Arabian Peninsula civilization, and to answer the question of whether history may gainfully draw on the Qura'n concerning relevant matters. When we find the Qura'n detailing a certain event and addressing it in the familiar language of history such as "before," "after" and "centuries in between," we are bound to look for the location which can also be derived from the narration of the event. Would the argument be proven for the Qura'n as a historical source if the many events it mentions were congruent with what we received from sources other than the Qura'n? And what if they were incongruent? Should not we in this case rethink for a moment what we mindlessly used to repeat and look for the reason?-*

لقد تفرّد السرد القرآني بمنهجية لترتيب الأقوام البائدة في الجزيرة العربية، تراوح بين التسلسل التاريخي من جهة، والموضوعي من جهة أخرى. وفيما يلي شرح لمنهجية هذا السرد:

أولا: منهجية السرد القرآني لترتيب الاقوام البائدة في الجزيرة العربية تاريخيا

لعل أخبار الأمم البائدة وأحوالها من الأشياء التي يحلو الحديث عنها بين الفينة والأخرى، وبخاصة إذا ما استعيدت في تسلسل تاريخي، لا يُخلق بلبلة بين المتلقّين، وبخاصة من أولئك الذين لا يستطيعون النظر في الأمر وتحرير الرأي فيه، بل إن التركيز على بعض أسماء هذه الأمم واستعمالها ضمن إطار تاريخي تنزل بها إلى الفترة التاريخية من حضارة الجزيرة العربية، يجعل الباحث ينفي اضطراباً فكرياً يبعد بهم عن الفترة التاريخية الحقيقية لهذه الأمة أو تلك؛ نتيجة لجهل أو عدم اهتمام أو عصبية أو اعتماد الحدث على الأسطورة، من دون عرض الأحداث على مشرط النقد التاريخي للنص أسلوبًا ومضمونًا. (الأنصاري ٢٠٠١: ٩-١٠)

وقد يرى بعض الباحثين أن القرآن إنما يستفاد منه لأشياء أخرى غير التاريخ. لكن التاريخ إنما هو حدث وزمان ومكان؛ وعندما نجد أن القرآن يتحدث عن الحدث بكل تفصيل، وعن الزمان بأدوات التاريخ المعتادة، مثل: قبل، وبعد، وقرونًا بين ذلك كثيرًا؛ أصبح علينا عندئذ أن نبحث عن المكان، وحتى هذا يمكن أن نستنتجه من السرد للحدث، بل ويذكره القرآن، كما هو الحال في الربط بين

(ص ص ١١٣-١٢٢) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

ثمود والحجر، وبذلك تتم أركان الاحتجاج بالقرآن مصدرًا تاريخيًا لأحداث كثيرة تتماشى مع ما وصل إلينا من أخبار عنها من غير سبيل القرآن، أو قد تختلف عنه. وهنا، نجد القرآن يربطنا بفترة تاريخية تجعلنا نعيد النظر فيما تعوّدنا على ترديده من دون الوقوف ولو للحظة لنتساءل: لماذا؟ (الأنصاري ٢٠٠١: ٩-١٠)

وهناك أحداث تاريخية شهدتها الجزيرة العربية يمكن تتبعها من خلال السرد القرآني، منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل الآية ٣٢)

وربط بعض المؤرخين بين ملكات أدوماتو وما جاء في القرآن الكريم عن ملكة سبأ ونبي الله سليمان عليه السلام؛ فيرى جواد علي أن ملكة سبأ المشار إليها في القرآن الكريم كانت تحكم مملكة عربية في شمالي الجزيرة العربية وليس في جنوبيها: (هناك مَن يرى أن ملكة سبأ الوارد ذكرها في القرآن الكريم، لم تكن ملكة على سبأ الشهيرة في اليمن، بل كانت تحكم مملكة عربية صغيرة في أعالي جزيرة العرب كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، ويستدلون على الربط بين هذه الملكة وبين دومة الجندل بعثور المنقبين على أسماء ملكات عربيات لدومة الجندل في النصوص الآشورية، في حين لم يعثر العلماء حتى الآن على اسم ملكة أو أميرة في الكتابات العربية الجنوبية). (علي ١٩٦٩: ٥/٦٠٠-٦٠٥)

ويرجّح محمد بيومي مهران أن الملكة العربية التي زارت نبي الله سليمان عليه السلام كانت ملكة على مملكة في شمالي الجزيرة العربية وليس في جنوبيها: (إن فريقًا من الباحثين يرى أن هذه القصة لا يمكن فهمها فهمًا جيدًا إلا إذا قدرنا أن السبئيين كانوا يقطنون في شمالي بلاد العرب؛ ولعل أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن السبئيين إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمالي بلاد العرب – في بلاد الجوف أو بالقرب منها – وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في بلاد العرب الجنوبية إلا حوالي عام ٨٠٠ ق. م أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من قرنين من الزمان، ومن ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان لم تكن ملكة على مملكة سبأ الشهيرة في اليمن، إنما كانت ملكة على مملكة صغيرة في أعالي شبه الجزيرة العربية وكان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، ويستدلون على وجود الصلة بين هذه الملكة وبين دومة الجندل بوجود أسماء ملكات عربيات مثل: زبيبة، وشمسي، وتلعخونوا، وتبوأه في النصوص الآشورية؛ في حين لم يُعثر على اسم ملكة في النصوص العربية الجنوبية). (مهران ١٩٩٤: ٢/٢٨٨-٢٨٩)

أما عبدالرحمن الطيب الأنصاري، فيرى أن التاريخ الذي ظهرت فيه ملكات أدوماتو يتزامن مع تاريخ نبي الله سليمان عليه السلام: (عندما نقرأ كتابات جنوبي الجزيرة العربية بكاملها في سبأ وحضرموت وقتبان ومعين لا نجد ذكرًا لاسم ملكة عربية أو أميرة عربية، ولكننا نجد نصوصًا تتحدث عن ملكات عربيات في منطقة الجوف؛ وهذا يوافق ويتزامن مع التاريخ الذي وجدت فيه تلك الملكات في دومة الجندل، والذي يبدأ من حوالي أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، وأن نبي الله سليمان عليه السلام كان في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، يضاف إلى ذلك أن الشمس كانت تعبد في منطقة الجوف، ولا يعرف أن الشمس كانت معبودًا رئيسًا في جنوبي الجزيرة العربية، بل كان القمر هو المعبود الرئيس في العربية الجنوبية) (الأنصاري ١٩٧٥: ٨٢-٨٤؛ الأنصاري ٢٠٠٨).

وفي الحديث هنا عن ترتيب الأمم البائدة سوف يتم الاعتماد على القرآن الكريم، كمصدر تاريخي يستمد منه الإطار الزمني لتلك الأمم، لأنه الأصدق. فكثيرًا مما جاء في القرآن مما ينفرد به عن التوراة، وبخاصة عندما يتحدث القرآن عن عاد وثمود، وهذا مما نبه عليه المفسر الطبري عندما نقل تراث عصره عن ثمود وكأنه بإلماحته هذه كان يريد أن يستند بما يأتي به الأحبار من أخبار، وما تختزنها ذاكرة القصاص أو الإخباريين.

وباستعراض آيات من كتاب الله من سور مختلفة نجد الآتي:

يبدأ القرآن الكريم من الآية التاسعة والخمسين وحتى الآية الثالثة بعد المائة من سورة الأعراف بالحديث عن أقدم الأمم التي كفرت برسالاته وآذت أنبياءه ورسله، وهنا نلتقي بما حدث لقوم نوح، إذ بعد صراع طويل بين الإيمان

والكفر يغرق الله الذين كفروا بآياته، وينجي المؤمنين. ثم ينتقل الحديث إلى عاد وأخيهم هود، وتأتي بعض التفاصيل عن الحوار بين هود وقومه، ويسرد هود ما أنعم الله به على قومه عاد.

ومما يشيد به القرآن ويركّز عليه تذكير تلك الأقوام بما أنعم عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وهنا نتوقف عند هذه البَعديّة، فهل هي ضمن تسلسل تاريخي؟ لا داعي لأن نقرر هذا الآن، فالآيات كثيرة وستأتي تباعًا في آيات هذه السورة أو غيرها من السور ذات العلاقة. وانتهى إلى قوم عاد، وقطع الله دابر الذين كفروا بآياته وما كانوا مؤمنين به عز وجل. وينتقل بنا القرآن الكريم بعد ذلك إلى ثمود وأخيهم صالح، فيتحدث عن الأحداث التي جرت، والناقة التي كانت تتحدى ثمود برعيها وشربها، ثم يمن الله عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد عاد، وأنه بوّأهم في الأرض. ولعل القرآن الكريم هنا يمنُّ عليهم بأنه أنزلهم منازل هي منازل عاد نفسها، مما لم يُشر إليه عند ذكر ما مَنَّ به على قوم عاد من أنَّه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح. وهكذا يسير القرآن فيوصف ما حدث لناقة صالح، حين عقروها، فأخذتهم الرجفة وأصبحوا في دارهم جاثمين.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى الحديث عن قوم لوط، ولم يسم هؤلاء القوم، ولذا فنحن نجهل مَن هم؟ ولكننا نعرف أن الله قد أرسل إليهم نبيه لوطاً، فآمن به مَن آمن إلا امرأته كانت من الغابرين.

ثم تحدّث القرآن بعدئذ عن مَدْيَن وأخيهم شعيب، فنعرف هنا أن مَدْيَن اسم لأمة بداية، ثم لعله أصبح اسمًا للمكان الذي كانوا فيه. وقد توسّع القرآن الكريم في الحديث عن أحداثهم مع شعيب عليه السلام، ثم يتوسع القرآن في العلاقة بين الكفر وما يصيب الكافرين نتيجة لذلك، وكيف أنه لو آمن أهل القرى لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض. ثم نستخلص من هذا السرد الإيماني أن الله سبحانه وتعالي قصَّ على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أنباء هذه القرى لكي يُسَرِّي عنه لقاء ما يجده من عَنَتٍ ونَصَبٍ في سبيل الدعوة، ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يكرِّر ما سبق أن ذكره بالنسبة لقوم عاد، من أنه مَنَّ عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وكذلك ما ذكره بالنسبة لقوم ثمود بأنه مَنَّ عليهم بأن جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد، عندما أخبرنا عن قوم لوط وعن مدين وعن شعيب، ولكننا لكيلا نفقد التسلسل التاريخي للزمان، بدأ الله عزوجل حديثه عن موسى بقوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى...﴾ أي من بعد كل هؤلاء: قوم عاد، وثمود، ولوط، ومدين؛ فتحققت بذلك البَعدية الزمنية، فأصبح لدينا تسلسلا تاريخيًا زمنيًا يبدأ بنوح وينتهي بموسى.

أما في السورة الحادية عشرة من القرآن وهي سورة هود، فقد بسط الله قصص هؤلاء الأنبياء والرسل مع أقوامهم من الآية ٢٥ وحتى الآية ١٠٠، أي في ٧٥: فبدأ بنوح وحواره مع قومه، ثم أمره الله بصناعة السفينة، ثم جاء الطوفان، ونجّاة ومَن آمن معه إلا ابنه، ثم أردف الحديث بعد نوح عن عاد وأخيهم هود، وختم حديثه عنهم بقوله تعالى: ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾. ثم تحدث القرآن عن ثمود وأخيهم صالح، وختم حديثه عنهم بقوله تعالى: ﴿ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود﴾. ثم تحدث الله عز وجل عن سيدنا إبراهيم، وتحدث عن البشرى التي كانت تحملها الملائكة له ولزوجه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وقَرَنَ الله عز وجل الحديث عن إبراهيم بالحديث عن قوم لوط، لأنهما متعاصران.

ثم تحدث القرآن الكريم في السياق التاريخي الذي ورد في سورة الأعراف عن مدين وأخيهم شعيب، ولكن الله عز وجل هنا وضح الترادف التاريخي في آية واحدة هي رقم (٨٩) من سورة هود فيقوله تعالى: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ فهل كان المدينيون معاصرين لقوم لوط في الزمان أو مجاورين لهم في المكان؟!! يبدو ذلك والله أعلم.

وختم القرآن الكريم حديثه عن مدين بقوله تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾. ثم تلى ذلك قصة موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون، ثم ختم حديثه عن كل ذلك بقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد﴾ فبعض هذه القرى ما يزال قائمًا وبعضها قد حصدته الأيام، فلم يبق منها شيء.

في السورة الثالثة عشرة من القرآن، وهي سورة إبراهيم فقد جاءت فيها آيتان ذكر الله فيهما أقواماً على لسان موسى عليه السلام: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم...﴾ إلى آخر الآية، فهذه الآية تجمع بين القَبْلِيَّة والترتيب الزمني لهذه الأقوام. أليس هذا تاريخًا؟

أما فى السورة الثانية والعشرين وهي سورة الحج تأتي ثلاث آيات هي قوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكُذِّبَ موسى، فأمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم فكيف كان نكير﴾. وهنا نجد ثبتًا وتسلسلاً واضحًا بالقبلية والترتيب الزمني، منذ نوح إلى موسى.

وفي السورة الخامسة والعشرين، وهي سورة الفرقان، يُبيّن لنا القرآن الكريم حقيقة أخرى تفيد في تصورنا للإطار الزمني لتاريخ هذه الأمم، ومن ثم تاريخ الجزيرة العربية، وهي قوله تعالى: ﴿وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا﴾، مما يفهم من هذه الآية أن التسلسل الزمني ليس مترابطًا أمة تلو أخرى لكن هناك قروناً بين ذلك، فكم هي هذه القرون؟ تلك هي القضية، وذلك هو ما يجب أن يبحثه ويحققه علماء ما قبل التاريخ، أو ما قبل الكتابة؛ إذ يرى بعض الباحثين أنَّ كلَّ ما مرَّ على البشرية تاريخ، وما الكتابة إلا ظاهرة من ظواهر التاريخ، عبَّرَ بها الإنسان عن نفسه، كما عبر عنها بوسائل أخرى في ما قبل ذلك، وحتى بعد الكتابة.

وحتى الفراعنة كانوا على علم أو بعض علم بما جرى قبلهم من أحداث لها صلة بالكفر والإيمان ونتائجهما، وهو ما نجده في السورة الأربعين، وهي سورة غافر، التي تعد حكاية عن حوار ونصيحة أسداها المؤمنون من آل فرعون إلى أتباعهم، إذ يقول أحدهم: ﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾.

فإذا عرفنا حسب ما اتفق عليه المؤرخون، أن سيدنا إبراهيم، عليه السلام، كان في بداية الألف الثانية قبل الميلاد (١٨٠٠ق. م) وأن سيدنا موسى، عليه السلام، كان في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد (١٢٠٠ق. م)، وبينهما نحو ٦٠٠ سنة، فإن قوم صالح (ثمود)، كانوا في الألف الثالثة قبل الميلاد، وهذا على أقل تقدير، إن لم نأخذ في الاعتبار قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾. وهنا نصل إلى حقيقة ثابتة، وهي أن ثمود قوم صالح هم أصحاب الحِجْر، كما أنَّ هناك حقيقة ثابتة أن وجودهم كان في الألف الثالثة قبل الميلاد.

وعليه يتضح باستعراض الآيات التي وردت فى السور أعلاه، وجميعها مكية، ما عدا سورة الحج، أنَّ الأقوام البائدة في الجزيرة العربية، يمكن أن تُرتّب زمنيا أو تاريخيا حسب تلك السور، على النحو الاتي:

قوم نوح	**٦٠٠٠ ق. م**
قوم هود (عاد)	**٤٠٠٠ ق. م**
قوم صالح (ثمود)	**٣٥٠٠ ق م**
قوم إبراهيم وقوم لوط	**١٨٠٠ ق. م**
قوم شعيب (مدين)	**١٥٠٠ ق. م**
قوم فرعون (موسى)	**١٢٠٠ ق. م**

وقد ورد ذكر أصحاب الرسّ وأصحاب الأيكة، بين ثنايا هذه الأقوام. وبهذا السرد تتم أركان الاحتجاج بالقرآن مصدرا تاريخيا لأحداث كثيرة، اتسقت مع ما وصل إليه علماء التاريخ والآثار من أخبار عن هذه الأقوام من غير سبيل القرآن. ويعود السبب فى ذلك إلى أن القرآن يتحدث عن الحدث بكل تفصيل، وعن الزمن بأدوات التاريخ المعتادة، ما يلقي ظلالا على منهجية لسردٍ تاريخي أعطاه القرآن أهمية خاصة.

وفي ضوء تطور التنقيبات الأثرية، يأمل الآثاريون والمؤرخون في الوصول إلى مؤشرات أو أدلة أثرية تكشف عن الأمم البائدة.

ثانيا: منهجية السرد القرآني لترتيب الأقوام البائدة فى الجزيرة العربية ترتيبا موضوعيا:

توضّح السور الآتية: (الشعراء، والعنكبوت، والصافات،وص، وفصلت، وق، والذاريات، والنجم،

والحاقة، والبروج) المنهجية التي اتبعها القرآن في ترتيبه الأقوام البائدة في الجزيرة العربية ترتيباً موضوعياً.

وتعتمد الورقة في تحليل هذا الترتيب الموضوعي للأقوام البائدة في الجزيرة العربية المحاور المنهجية المبينة فيما يأتي:

المحور الأول: الأسس المنهجية للتحليل:

لقد تم الأخذ في الاعتبار في هذا التحليل أسسا عدة، منها: سياق الآيات في السور، والتجاور والتلاحم بين الآيات حتى وإن بعدت مواقعها في السرد القرآني، والتفسير الموضوعي لآيات السور التي شملت الأقوام البائدة في الجزيرة العربية، إضافة إلى كون الآيات يفسر بعضها بعضا.

المحور الثاني: القضايا والموضوعات التي رتبت بموجبها الأقوام البائدة في الجزيرة العربية المذكورة في القرآن ترتيبا موضوعيا:

- قضية الشرك والإلحاد كما في سورة الشعراء.
- قضية التصريح بنجاة الرسل من عذاب أقوامهم من عدمه، أي أن هناك آيات تجاورت مع بعضها تم التصريح في بعضها بنجاة الرسل من العذاب الذي حلّ بأقوامهم، بينما لم يُصرح بنجاة الرسل في بعضها الأخر، كما في سورة العنكبوت.
- قضية شمولية العذاب أو محليته كما في سورة العنكبوت وكما في سورة ص.
- قضية تكذيب الأقوام لأنبيائهم ورسلهم، وشدة هذا التكذيب، كما في سورة ص.
- قضية التجانس الفكري والعقدي بين الأقوام، كما في سورة فصلت، وفي سورة ق.
- قضية مسار السياق القرآني واتجاهه، كما في سورة فصلت وفى سورة الذاريات.
- قضية الإسناد في الخبر إلى أقرب جار من النبأ، والسير بالخبر في خط زمني تتابعي من الأحدث إلى الأقدم، كما في سورة النجم.
- قضية شدة العذاب وسرعته كما في سورة إلحاقه.
- قضية قوة القوم ونوع عتاده كما في سورة البروج.

المحور الثالث: الطرق والأساليب المنهجية التي وُظِّفت في ترتيب السرد القرآني للأقوام البائدة فى الجزيرة العربية موضوعيا:

- التبويب المنهجي الذي يقترن بقياس الحدث على منطلق مسلكه، كما في سورة الشعراء.
- العنقدة النوعية[1] المعتمدة على أصل استقرائي تعميمي محض، قوامه التبويب والتصنيف والقياس لتحويل الحقائق غير المبوبة إلى حقائق مبوبّه؛ تيسيرا للتعميم الاستقرائي والاستدلالي القياسي التحليلي الديناميكي المحض، كما في سورة العنكبوت.
- المفارقة والمقاربة بين أجناس التصنيف أو نوع الفئة، وهو أسلوب اقتراني حضوري السجل، كما في سورة ق.
- محاور الارتكاز المرجعية والتدوير الاستقرائي للأحداث وفق هذه الركائز، كما هو الحال في سورة الذاريات،وفي سورة فصلت.
- الطبيعة الفيزيائية لقوانين الحدث (قوانين الصوت شدة وسرعة)، كما في سورة الحاقة.

وفيما يأتي تحليل للسرد القرآني لترتيب الأقوام البائدة في الجزيرة العربية، وِفق المنهجية الموضحة آنفا، والسور الآتية المشار إليها، وذلك على النحو الآتي:

السورة الأولى/ الشعراء (٢٦) الآيات (١٠-١٨٩) – مكيه

سورة الشعراء نموذج لحوار الأنبياء مع أقوامهم ولهذا رتبت الأقوام في هذه السورة بناءً على هذا الحوار إلى مجموعتين كما يأتي:

– المجموعة الأولى: أقوام مشركة: وتضمنت قوم فرعون ثم قوم إبراهيم، ففرعون نصب نفسه إلها من دون الله، أما قوم إبراهيم فجعلوا لأنفسهم آلهة فعبدوها. ولا شك أن الابتداء بفرعون ثم بإبراهيم عليه السلام هو ترتيب

غير زمني، بل هو مبني على موضوع عقدي؛ ولهذا قدّم من نصّب نفسه إلها على من اتخذ سواه آلهة، إضافة إلى أن قوم فرعون أقرب عهدا للنبي صلى الله عليه وسلم من قوم إبراهيم، ولذلك تدرج الخطاب القرآني منهجيا من الأقرب وهم قوم فرعون، إلى الأبعد زمنيا وهم قوم إبراهيم.

- المجموعة الثانية: أقوام ملحدة وقد أدرج في هذه المجموعه الأقوام الآتية: نوح، وعاد، وثمود، ولوط. وواضح أن القرآن حافظ في هذه المجموعة على التسلسل الزمني على الرغم من المزج في هذا السرد بين الزمن والموضوع؛ ما أدى إلى كسر هذا التسلسل بالفصل بين ما ورد في المجموعة الأولى وما جاء في المجموعة الثانية من أخبار الأقوام من نوح إلى شعيب. ولهذا يعد هذا الترتيب الذي جاء في القسم الثاني ترتيبا بالموضوع على الرغم مما حواه من تسلسل زمني مبني على أصل عقدي. ويدعم هذا الاستنتاج نص قرآني تكرر ذكره مع كل قوم ذُكروا في هذه المجموعة، وهو قوله تعالى: ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾، إذ قيل هذا النص في حق قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود، ثم عقب ذلك بقوم لوط، الذين قال فيهم عز وجل: ﴿وما أكثرهم مؤمنين﴾ ثم عرّج بعد ذلك على قوم شعيب وهكذا دواليك.

إن هذا الترتيب غير الزمني الذي تحويه هذه السورة اعتمد منهجيا على مبدأ التبويب الذي يعد أصلا من أصول التعميم الاستقرائي، الذي يقترن أحيانا بالقياس، أي قياس الحدث على منطلق مسلكه؛ ولذلك، صُنِّفت الأقوام فى السرد القرآني في هذه السورة إلى أقوام مُشركة وأخرى مُلحدة، بناءً على هذا الأصل المنهجي الاستقرائي.

السورة الثانية/ العنكبوت (٢٩) الآيات (١٤-٤٠)

ترصد سورة العنكبوت أخبار الأنبياء والرسل الذين أنجاهم الله من العذاب الذي أصاب أقوامهم. وقد رتبت الأقوام في هذه السورة إلى مجموعتين بناءً على لفظة «النجاة»، إذ صرحت السورة في بعض آياتها بنجاة الرسل من العذاب الذي حلَّ بأقوامهم، وسكتت عن التصريح بذلك في بعضها الآخر. فشملت المجموعة الأولى نوحا وإبراهيم ولوطا متخطية الآيات في هذه المجموعة عادا وثمود، زمنياً، أما المجموعة الثانية، فشملت مدين وعاد وثمود ليختتم الترتيب بفرعون، فأجّل ذكر عاد وثمود التي تأتي عادة بعد قوم نوح وقبل قوم إبراهيم، في الترتيب التاريخي، لتوضع في ترتيب آخر غير الترتيب الذي شمل نوح وإبراهيم ولوط؛ فجاء الترتيب لذكر الأقوام فى هذه السورة على النحو الآتي: نوح وإبراهيم ولوط ومدين وعاد وثمود ثم فرعون.

لا شك أن هذا السرد الآنف الذكر أعلاه هو ترتيب غير تاريخي، وإن ظهرت فيه دالة الترتيب الزمني جزئياً. ويعود السبب في ذلك إلى ربط الاستقراء، إما بنجاة الرسل من العذاب الذي حاق بأقوامهم تارة، أو السكوت عن ذلك تارة أخرى؛ فقد قال عز وجل - مثلاً - عن نوح: ﴿فأنجيناه﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿فأنجاه الله من النار﴾، وقال في حق لوط: ﴿إنا منجوك وأهلك﴾، كما نجى بقية الرسل: كشعيب، وهود، وصالح، وموسى، من العذاب الذي حاق بأقوامهم. لكنَّ القرآن في هذه السورة لم ينص على نجاتهم صراحة كبقية الرسل الذين تضمنهم سرد الآيات في هذه السورة.

كذلك رتبت الأقوام في هذه السورة بناءً على شمولية العذاب أو محليته؛ فأخذ الله قوم نوح بالطوفان الذي شمل المعمورة، بينما أخذ قوم لوط بعذاب خصَّ مكان إقامتهم، وأخذ فرعون وقومه بظاهرة محلية ألا وهي الغرق في اليم، أما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية، وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية. إذاً، أعتمد الترتيب هنا على مدى شمولية العذاب ومحليته، وليس على شدة العذاب وقوته، كما هو الحال في ترتيب موضوعي آخر، ورد في حق هذه الأقوام في سور أخرى، كالحاقة مثلاً. إن هذا الترتيب -والله أعلم- هو ترتيب حركي ديناميكي، يدخل تحت باب أساليب العنقدة النوعية التي تسيّرها قضايا التبويب الذي يعد أصلا من أصول طرق التعميم الاستقرائي المحض.

السورة الثالثة/ الصافات (٣٧) الآيات (٧٥-١٤٨)

رتبت هذه السورة الأنبياء والرسل حسب لفظة «شيعة» ولفظة «ذرية»، فجاء الترتيب في هذه السورة على النحو الآتي: (نوح، وإبراهيم، وإسحاق، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس)، وذلك وفقاً لمن منهم من شيعة نوح، ومن منهم من ذرية إبراهيم وإسحاق. فوصف الله نوحاً بالمحسنين والمؤمنين فقال سبحانه وتعالى (كذلك

نجزي المحسنين)، وقال (إنه من عبادنا المؤمنين)، ولذلك جعل الله إبراهيم في الترتيب بعد نوح لأنه من شيعة نوح، كما قال سبحانه (إنَّ من شيعته لإبراهيم)، ثم قال في حقه ﴿سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾ فاتسق وصف الله لإبراهيم مع وصفه لنوح عليهما السلام، إلى أن قال في حق إبراهيم: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾ فإبراهيم وإسحاق بارك الله فيهما، وجعل من ذريتهما المحسن والظالم، كما قال تعالى ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾.

بعد ذلك جاء موسى وهارون بعد إسحاق في الترتيب، وذلك اتساقا مع ما ذكره السياق القرآني، تأسيسا على مبدأ لفظة «الذرية» التي ألحق بموجبها الرسل والأنبياء بإبراهيم عليه السلام. وهنا جاء ذكر إلياس، وتكذيب قومه له إلا المخلصين منهم، إلى أن انتهى الحديث عنه بقوله تعالى ﴿سلام على إل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾.

وهنا انتقل السياق القرآني لذكر لوط ويونس عليهما السلام، إذ جاء ذكر لوط متأخراً في الترتيب رغم أنه يأتي تاريخياً مرتباً عادة بعد قوم إبراهيم مباشرة. وفي اعتقاد الباحثين أن ذكر لوط ويونس في هذا السياق قد جاء مدرجا في فئة أخرى غير الفئة التي وضع فيها نوح وإبراهيم وإسحاق، وكذلك في غير الفئة التي وضع فيها موسى وهارون وإلياس، مما يفهم أن لوطا ويونس ليسا ربما من شيعة نوح أو من ذرية إبراهيم، فجاءا متأخرين في الترتيب ضمن فئة أخرى لا تدرج ضمن شيعة نوح من ناحية، ولا ضمن ذرية إبراهيم، من ناحية أخرى.

إذاً، يتضح أن الترتيب في هذه السورة هو ترتيب موضوعي يعتمد على لفظتي «الشيعة» و«الذرية» فجعل إبراهيم من شيعة نوح بينما جعلت بقية الرسل الذين ورد ذكرهم في هذه السورة من ذرية إبراهيم وإسحاق، ما عدا -والله أعلم- لوطا ويونس عليهما السلام.

السوره الرابعه/ ص (٣٨) الآيات (١٢-١٣)

تأسس محور الارتكاز في هذه السورة على الوصف القرآني للمدى الذي كذّب الأقوام أنبيائهم، فاعتمد الترتيب هنا على وصف مدى حدة هذا التكذيب، من ناحية، والتحزب، من ناحية أخرى؛ وهو تحزب فكري قومي غير حضوري أو غير متصل بالضرورة زمكانيا، قوامه الأدلجة أو الانتماءات التيارية الحزبية لأقوام الجزيرة العربية آنذاك، الذين -من الواضح- أن ترتيبهم في هذه السورة قد تمحّور على هذا الأساس التحزبي.

وتأكيدا لما تم ذكره فيما سبق، فقد رتبت هذه السورة الأقوام البائدة فى الجزيرة العربية ترتيبا موضوعيا تم فيه فصل ثمود عن عاد التي كانت تأتي في معظم الآيات متسلسلة بعد نوح، وملازمة لثمود. ولهذا، نجد أن قوم فرعون في هذه السورة قد قُدِّموا في هذا الترتيب على ما سواهم، كثمود وقوم لوط؛ نتيجة لما عرف عن هؤلاء القوم من تكذيب واضح ومعلن لأنبيائهم ومشاطرة بينة للعداء والتحدي والاستخفاف بدعوة الرسل؛ ولهذا، أدرجت أقوام كنوح وعاد في سياق ترتيب قوم فرعون كنتيجة لشراكة حميمة في وحدة القضية العقدية بين هؤلاء الأقوام. ورتبت الآية الثالثة عشرة على السياق التاريخي، ولكن تم فصل ثمود ولوط عن ما جاء في آيات أخرى، وذلك على أساس تصنيفي ليس فيه عاد وما قبلهم من الأمم أو ما بعدهم، كقوم فرعون، قال تعالى: ﴿أولئك الأحزاب﴾.

وبالمثل، نجد أن هذا الترتيب للأقوام قد كسر طوقه في سورة فُصّلت، التي ذكرت فيها عاد وثمود فقط، وسكتت عن قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وقوم فرعون وقوم نوح، أيضا على الرغم من ذكر الله في هذه السورة لموسى عليه السلام في آية متأخرة من سورة فصلت وهي الآية الخامسة والأربعين. وهذا ما نجده في المقابل أيضا في سورة ق الآيات من (١٢-١٤)، إذ تقدم في السورة أصحاب الرس على عاد وثمود، وتقدمت ثمود على عاد، وعطفت على أصحاب الرس، كما سبق ذكر قوم فرعون، وذكر قوم لوط.

السورةالخامسة/ فصلت (٤١) الآيات (١٣-١٨) والآيه (٤٥)

اقتصر ذكر الأقوام في هذه السورة على عاد وثمود فقط، وسكتت السورة عن بقية الأمم والأقوام. ولعل الذي دعى إلى هذا السياق، هو آيات السورة التي سبقت آيات ذكر

هؤلاء الأقوام، إذ ذكرت السماء والأرض وجاء ذكر عذاب هؤلاء الأقوام متسقا مع الترتيب الخاص بالنشأة الكونية، وأن السكوت عن ذكر بقية الأقوام هو -والله أعلم- بسبب عدم اتساق أخبارهم، بما في ذلك عذابهم، مع محاور ارتكاز النشأة الكونية التي تضمنتها هذه السورة.

السوره السادسه/ ق (٥٠) الآيات (١٢-١٤)

بدأت الآيات في هذه السورة بذكر قوم نوح ثم قدم أصحاب الرس، على قوم عاد وقوم ثمود، وتقدمت ثمود على عاد، وعطفت على أصحاب الرس، كما سبق ذكر قوم فرعون ذكر إخوان لوط، ثم أتبع هذا الترتيب بذكر أصحاب الأيكة وقوم تبّع. ويرى الباحثان أن دراسات مستفيضة مستقبلية لهذه السورة قد تكشف ترتيبا، ربما يتأسس، بناءً على وجود تجانس غير ظاهر بين أصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط، من ناحية، وبين أصحاب الأيكة وقوم تبّع الذين أجّل ذكرهم لآخر النص، من ناحية أخرى. وقد تكشف هذه الدراسات أن هذا التجانس قد يكون فكريا أو سلوكيا أو عقديا أو تحزبيا، وهو بلا شك أسلوب جدير بالبحث والاستقصاء، من باب الفضول المعرفي الذي يُمكّن من رصد أوجه المفارقة والمقاربة في هذا الترتيب.

السورة السابعة/ الذاريات (٥١) الآيات (٢٤-٤٦)

الذاريات هى سورة أقسم الله سبحانه وتعالى فيها بمخلوقات كونية، إذ أقسم بالسماء ذات الحبك، ثم أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾، ليعود الخطاب القرآني معرّجا تارة أخرى على السماء، فقال تعالى ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾، ثم ختم هذه المحاور الارتكازية بقوله تعالى ﴿فورب السماء والأرض﴾.

فترتيب الأقوام في هذه السورة جاء وفقا لتبويب استقرائي تقدمت فيه السماء، ثم تلاها ذكر الأرض، ثم السماء ثانية، ثم الجمع بين السماء الأرض في آخر المطاف. ولذلك، رتبت أقوام الجزيرة العربية هنا بحسب مصدر العذاب الذي أصابهم، بشكل يتسق تماما مع محاور الارتكاز المرجعية، الأنفة الذكر: (سماء، أرض، سماء، سماء أرض)؛ فجاءت الأقوام مرتّبة موضوعيا على النحو الآتي: قوم لوط، وعذبوا بحجارة من طين ومصدرها السماء، بينما عذب قوم فرعون بالغرق في اليم ومصدره الأرض، أما عاد فعذبوا بالريح العقيم التي مصدرها سماوي أرضى، أما الصاعقة التي عذب بها قوم ثمود فذات مصدر سمائي، بينما يجمع الطوفان الذي قضى على قوم نوح بين مصدري السماء والأرض. ولهذا، نجد أن ترتيب الاقوام في هذه السورة قد جاء على النحو الآتي: قوم لوط، وقوم فرعون، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، الذين أشارت إليهم: جاءت متأخرة السياق عن ما هو مألوف في الخطاب القرآني السابق السرد لقوم نوح في غير هذه السورة. ومن الجدير بالذكر أن هذا الترتيب قد بني أيضا على مصدر العذاب ونوعه؛ فالحجارة والريح والصواعق من السماء، واليم في الأرض، والطوفان من السماء وعذابه في الأرض؛ ولهذا، جاء الترتيب في هذه السورة مبتدءا بقوم لوط الذين رجموا بحجارة من السماء، وانتهى بذكر قوم نوح الذين عذبوا بالطوفان.

وخلاصة القول، أن ترتيب الأقوام في هذه السورة قد جاء مستندا على ما يمكن أن نُسمّيه منهجياً بـ «محاور الارتكاز المرجعية والتدوير الاستقرائي للأحداث» وِفق فرص تلاقح تلك النقاط الارتكازية.

السورة الثامنة/ النجم (٥٣) الآيات (٣٦-٣٧)

هذه سورة استند في ترتيب الأقوام فيها على الحدث الأقرب، ثم الذهاب في السند إلى الحدث الأبعد؛ أي بمعنى آخر، أن هذه السورة أسست منهجيا على سلسلة تربط الحدث بأقرب جار، ثم الذهاب به في السند من الأحدث وقوعا إلى الأبعد عهدا في الوقوع أو الجوار. فتقدمت لذلك صحف موسى في هذه السورة على صحف إبراهيم، خلافا لما ورد في سورة الأعلى التي تقدمت فيها صحف إبراهيم على صحف موسى. والسبب أن موسى أقرب حديثا وحدثا من صحف إبراهيم للمخاطب بالآيات في هذه السورة وهو الوليد ابن المغيرة عند بعض المفسرين، الذي قال عنه الله سبحانه وتعالى ﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا وأكدى، أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الآيات (٣٣-٣٥)، إلى أن قال عز وجل في السورة نفسها ﴿أم لم يُنبأ بما في صحف

موسى وإبراهيم الذي وفّى﴾؛ فصحف موسى أقرب عهدا إلى المغيرة من صحف إبراهيم، والنبأ بالشيء منهجيا يبدأ بالأقرب عهدا، ثم يوغل فى الأقدم منه. ولذلك، إذا نظرنا إلى لفظة النبأ في الآية، فإن في ذلك ما يفيد بسير الحدث في خط زمني لاحق من الحديث إلى القديم، في سلسلة تراتيبية منطقية، توغل من خلال أحدث الأنباء نحو أقدمها.

السورة التاسعة/ الحاقه (٦٩) الآيات (٤-١٠)

لقد رُتبت أقوام الجزيرة العربية في هذه السورة بناءً على شدّة العذاب وسرعته، فتقدمت في هذه السورة ولأول مره في القرآن كله ثمود على عاد من حيث العذاب، فقال تعالى ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ وقال (وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية﴾. إن هذا التقديم لقوم ثمود على قوم عاد في هذه السورة قد أملته الطبيعة الفيزيائية للعذاب، فثمود أهلكت بالطاغية وهي الصيحة المجاوزة للحدّ في شدة الصوت لتقارب تموّجات ترددها، أما عاد فأهلكوا بالريح الصرصر العاتية، أي الشديدة الصوت والبرودة ولكنها مع ذلك هي بلا شك أقل بكثير من شدة حدة عذاب صوت الطاغية التي ربما قد تجاوز طيفها الصوتي فيزيائيا كل الترددات الصوتية وما فوقها إلى ما تحت الصوتي من الطيف.

كما أن ترتيب الأقوام في هذه السورة لم يجيء بحسب نوع العذاب وشدته فحسب، بل جاء أيضا بحسب سرعة العذاب وشموليته؛ فعذاب الطاغية أسرع تأثيرا وأشمل من عذاب الريح، التي سلطها الله على قوم عاد عدة أيام، إذ قال تعالى ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾.

كذلك تم ترتيب الأقوام في هذه السورة اعتمادا على البعد الحراري للعذاب؛ فالطاغية صاعقة سريعة حارة والريح بطيئة باردة، ما يعنى أن الترتيب اعتمد هنا على سمات ثرموديناميكية محضة. ولهذا، قدّم قوم ثمود على قوم عاد في هذه السورة، لكون عذاب قوم ثمود ذا سمة حرارية أشد بكثير فيزيائيا من حرارة الريح التي عذب بها قوم عاد. وقد تكرّر هذا المشهد القرآني في الآية (٩) من هذه السورة، فتقدم ذكر قوم فرعون على من قبله إذ قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾، والسبب والله أعلم بمراده أن قوم فرعون أغرقوا باليم الذي هو أسرع من عذاب ماء طوفان نوح، إذ انشق البحر على فرعون وقومه فكان كالطود العظيم الذي أطبق عليهم فجأة، وبسرعة مباغتة، بينما أخذ الطوفان فترة طويلة لتمتلئ الأرض بالماء، وفترة لتفيض، وزمنا طويلا نسبيا ليغيض الماء، وتستوي السفينة على الجودي.

إذاً، يمكن القول أن ترتيب الأقوام البائدة في الجزيرة العربية في هذه السورة، قد اعتمد على قوانين الطبيعية الفيزيائية، من حيث مصدر العذاب وتباين شدته الصوتية والثرموديناميكية؛ فتقدم فى الترتيب، تبعاً لذلك، قوم ثمود الذين تعرضوا للعذاب الأشد صوتا وحرارة على قوم عاد الذين تعرضوا للأقل عذابا في هاتين السمتين. إضافة إلى ذلك، فقد رتبت ثمود قبل عاد نتيجة لتعرضها لعذاب أسرع هلاكا من العذاب الذي تعرضت له عاد.

السورة العاشرة/ البروج (٨٥) الآيات (١٧-١٨)

تقدم في هذه السورة ذكر جنود فرعون على جنود ثمود، إذ قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود، فرعون وثمود﴾. وهذا ترتيب موضوعي غير تاريخي اذ تم تقديم فرعون وتأخير ثمود بناءً على قوة عتاد القوم وشدته وإعداد الجنود وجبروتهم، ليفهم من هذا السياق القرآني أن قوم فرعون قد كانوا ربما أكثر عدة وعتادا وجندا من قوم ثمود.

أ. د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري: أستاذ آثار الجزيرة العربية وتاريخها - الرياض - المملكة العربية السعودية.
أ. د. يحيى محمد شيخ أبو الخير: أستاذ الجيومورفولوجيا والأساليب الكمية - قسم الجغرافيا - كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض - المملكة العربية السعودية.

الهوامش:

(١) العنقدة: Cluster Analysis: أسلوب إحصائي تصنيفي لتجميع حالات المشاهدات أو القيم المرصودة أو المحسوبة رقميًا في هيئة عناقيد هرمية الشكل، بحيث يضم كل عنقود في الهرم الحالات الأكثر تشابهًا أو تجانسًا من الحالات في العناقيد المناظرة الأخرى التي يشملها التركيب الهرمي (Hierarchical Structure) لهذه العنقدة.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية

القرآن الكريم.

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ١٩٧٥، «لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال وشمال غربي الجزيرة العربية»، ص ٧٥ – ٨٧ (**الدارة** – العدد الأول ربيع الأول ١٣٩٥هـ/ مارس ١٩٧٥م).

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٠١، «ثمود والثمودية (١) ثمود كما أرخها القرآن الكريم»، ص ص ٩ – ٢٤ (**مداولات اللقاء العلمي السنوي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية – مسقط – جامعة السلطان قابوس، محرم – صفر ١٤٢٢هـ/ أبريل ٢٠٠١م**).

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، ٢٠٠٨، **الجوف «قلعة الشمال الحصينة»**، سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور، دار القوافل، الرياض.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (د. ت)، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، تحقيق محمود وأحمد شاكر، القاهرة.

علي، جواد، ١٩٦٩ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (الجزء الثاني، والجزء الخامس)، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٩م.

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، ١٩٦٧، **الجامع لأحكام القرآن**، الطبعة الثالثة، القاهرة.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ١٩٦٨، **تفسير ابن كثير**، الطبعة الأولى، القاهرة.

مهران، محمد بيومي ١٩٩٤ تاريخ العرب القديم(الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الحادية عشرة، الإسكندرية)